دلالة
ألفاظ
القرآن الكريم
عند ابن القيّم

د. عَبد الفتاح لاشين السَّيد

تمتاز الكلمة القرآنية بأنها خفيفة على السمع ، سهلة على النطق ، تدل على المعنى بيسر وسهولة .

والقرآن الكريم حينما يستعمل كلمة مّا في تعبير ، يقصد من استعمالها بعينها دون غيرها معنى لايوجد في سواها ، وقد يظن صاحب الفطرة النقية ، والسليقة العربية أنه بالإمكان التغيير والتبديل ، ولكن هذه قدرة بشر ـ مهما بلغت ـ فأين هي من قدرة الله ؟ ، وأين هذا من صنعه ؟ « صُنْعَ اللَّه الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْء ، إِنَّهُ خَبِيرٌ بمَا تَفْعَلُون » (النمل ٨٨) .

ولقد زعمت الأعراب ـ يوما ـ الإيمان ، ويحكي القرآن الكريم قولهم فيقول : « قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا » ولكن الله ـ سبحانه ـ يرشدهم إلى التعبير الصحيح ، ويدلهم على الكلمة التي تفصح عما في نفوسهم ، وتكشف عما في صدورهم ، فيقول : « قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ، ولكِنْ قُولُوا : أَسْلَمْنَا ، وَلمَّا يدْخُلِ الإيمانُ في قُلُوبكم » (الحجرات ١٤) .

فالدقة في التعبير ، والحيطة في استعمال الكلمة ، مطلب قرآني حرص عليه ، ونبه الفطر السليمة إليه ، حتى لا تضل المعاني في الأفهام ، ويضيع المقصود بين الاحتمالات .

وسنرى من خلال كلام ابن القيم مايوضح هذا ، فإلى حديث ابن القيم .

حديث ابن القيم عن اختيار اللفظ ، واصطفاء الكلمة في القرآن حديث يطول ، ولتحديد الفائدة ، سيكون حديثنا مقصورا على نقطتين :**أولاهما** ـ الكلمة المعرفة أو المنكرة ، ثانيتهما ـ اللفظ إذا وقع مفردا أو مثنى أو مجموعا .

أولاً : الكلمة المعرفة أو المنكرة

لفظ (السلام) تعريفه أو تنكيره :

تحدث ابن القيم تحت عنوان (**مسألة**) عن تحية الإسلام «سلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ، وقال : إن في هذا التسليم ثمانيةوعشرين سؤالاً ، وقد استغرقت إجابته

عن هذه الأسئلة مايقرب من سبعين صفحة من كتابه «بدائع الفوائد» .

وها نحن نمعن النظر ، ونمتع السمع بما حوته هذه الإجابات من أسرار للتعريف أو التنكير في كلمة «السلام» ، يقول : (١)

«ما الحكمة في ابتداء «السلام» بلفظ النكرة ، وجوابه بلفظ المعرفة ، فنقول : سلام عليكم ، ويقول الراد: عليكم السلام» ؟ .

وقبل أن يجيب يذكر مقدمة وتمهيدًا يصل عن طريقه إلى السر في ذلك ، فيقول : «الجواب عنها بذكر أصل تمهده نرجع إليه مواقع التعريف والتنكير في السلام وهو : أن (السلام) دعاء وطلب ، وهم في ألفاظ الدعاء والطلب ، إنما يأتون بالنكرة إما مرفوعة على الابتداء ، أو منصوبة على المصدر ، فمن الأول : ويلٌ له ، ومن الثاني: خيبةً له وجَدْعًا ، وعَقْرًا ، هذا في الدعاء عليه ، وفي الدعاء له . سقياً ورَعْيًا ، وكرامةً ومسرَّةً» .

ثم جاء بالجواب ، وأتى بالسر في تنكير السلام ، فقال : «فجاء (سلام عليكم) بلفظ النكرة ، كما جاء سائر ألفاظ الدعاء» .

ثم تعرض للسر في تعريف لفظ (السلام) من جانب الراد ، فقال :

«**وأما تعريف (السلام) في جانب الراد ، فنذكر أيضًا أصلاً يعرف به سره وحكمته ، وهو : أن الألف واللام إذا دخلت على اسم (السلام) تضمنت أربع فوائد .**

إحداها : الإشعار بذكر الله تعالى ، لأن (السلام) المعرف من أسمائه .

الثانية: الإشعار بطلب لمعنى السلامة منه للمسلم عليه .

الثالثة : أن الألف واللام يلحقها معنى العموم في مصحوبها ، والشمول فيه .

الرابعة : أنها تقوم مقام الإشارة إلى المعين ، كما تقول : ناولني الكتاب ، واسقني الماء ، وأعطني الثوب ، لما هو حاضر بين يديك ـ فإنك تستغنى بها عن قولك : هذا ، فهي مؤدية معنى الإشارة .

وإذا عرفت هذه الفوائد الأربع ، فقول الراد : وعليك السلام ـ بالتعريف متضمن للدلالة على أن مقصوده من الرد مثل ما ابتدئ به ، وهو هو بعينه ، فكأنه قال : ذلك السلام الذي طلبته مردودٌ عليك ، فلو أتى بالرد منكرًا لم يكن فيه إشعار بذلك ، لأن المعرف وإن تعدد ذكره ، واتحد لفظه ، فهو شيء واحد ، بخلاف المنكر .

ومَن فِهم هذا ، فهم معنى قول النبي — صلى الله عليه وسلم — « لن يغلب عُسرٌ يُسْرَيْن » مشيرًا إلى قوله تعالى : « فَإِنَّ معَ العُسرِ يُسرًا ٥ إِنَّ مَعَ العُسرِ يُسرًا » (الشرح ٥ ، ٦) فالعسر وإن تكرر مرتين ، وتكرر بلفظ المعرفة فهو واحد ، واليسر تكرر بلفظ النكرة فهو يسران ، فالعسر محفوف بيسرين : يسر قبله ، ويسر بعده ، فلن يغلب عسر يسرين .

وفائدة ثانية : وهي أن مقامات رد السلام ثلاثة : مقام فضل ، ومقام عدل ، ومقام ظلم ، فالفضل : أن ترد عليه أحسن من تحيته ، والعدل : أن ترد عليه نظيرها ، والظلم : أن تبخسه حقه ، وتنقصه منها ، فاختير للراد أكمل اللفظتين، وهو المعرف بالأداة التي تكون للاستغراق والعموم كثيرًا ، ليتمكن من الإتيان بمقام الفضل .

وفائده ثالثة : وهي أن المناسب تقديم (المسلم عليه) على (**السلام**) ، فلو نكره ، وقال عليك سلام ، لصار بمنزلة : (**عليك دين ، وفي الدار رجل**) فخرج مخرج الخبر المحض ، وإذا صار خبرا بطل معنى التحية ، لأن معناها الدعاء والطلب ، فليس بمسلِّم من قال : عليك سلام .

فتعريف (السلام) في الرَّادِّ باللام إشعار بالدعاء للمخاطب ، وأنه راد عليه التحية ، طالب له السلامة من اسم (السلام) .

استبانة وجوابها :

وإذا كان تعريف لفظ (السلام) هو الأبلغ في الرَّد ، والأحسن في التحية ، فلماذا جاء (السلام) من الله تعالى بلفظ النكرة فقال تعالى في جزاء المتقين :

« جنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ومَنْ صَلَحَ من آبائهم وأزْوَاجهم وذُرِّيَّاتِهم ، والمَلائكةُ يدْخُلُونَ عليْهِم مِنْ كلِّ بابٍ ، **سَلاَمٌ** عَلَيْكُم بما صَبَرْتُم ...» (الرعد ٢٣ ، ٢٤) ؟

يقول ابن القيم في الإجابة عن هذا السؤال :(٢)

« قد تقدم أن لدخول اللام في (السلام) أربع فوائد ، وهذا المقام مستغن عنها ، لأن المتكلم بالسلام هو الله تعالى ، فلم يقصد تبركا بذكر الاسم كما يقصده العبد ، فإن التبرك استدعاء البركة واستجلابها ، والعبد هو الذي يقصد ذلك .. وهو غير لائق هنا ، لأن سلامًا منه تعالى كاف من كل سلام ، ومغن عن كل تحية ، ومقرب من كل أمنية ، فأدنى سلام منه يستغرق الوصف ، ويُتم النعمة ، ويدفع البؤس ، ويطيب الحياة ، ويقطع موارد العطب والهلاك ، فلم يكن لذكر الألف واللام هنا معنى .

وتأمل قوله تعالى · « وعد اللهُ المُؤْمِنينَ والمُؤْمِناتِ جنَّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِها الأَنْهَارُ خالدين فيها ، ومساكنَ طيِّبَةً في جنات عَدْنٍ ، ورِضْوَانٌ من الله أَكْبَر» . (التوبة ٧٢) .

كيف جاء بـ (رضوان) مبتدأ مخبراً عنه بأنه أكبر من كل ما وعدوا به ، فأيسر شيء من رضوانه أكبر من الجنات ، ومافيها من المساكن الطيبة وماحوته ، ولذلك لما يتجلى الله لأوليائه في جنات عدن ، ويمنيهم أي شيء يريدون ؟ .

فيقولون: رَّبنا ، وأي شيء نريد أفضل مما أعطينا ؟ .

فيقول تبارك وتعالى : «إن لكم عندي أفضل من ذلك ، أحل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعده أبدا» .

ولأن (السلام) مادام من الله تعالى فهو يكفي عن كل تحية ، ويغني عن كل دعاء ، وقليل من الله تعالى لايقال له قليل ، لهذا جاء التنكير في سلام الله تعالى ليحيي — عليه السلام — في قوله : «وسلاَمٌ عَلَيْه يَوْمَ ولِدَ ويَوْمَ يَمُوتُ ويَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا» (مريم ١٥) ، وعرف (السلام)(٣) عندما سلم المسيح على نفسه في قوله تعالى حكاية عنه : «والسَّلاَمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدْتُ ويَوْمَ أَمُوتُ ويَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا» (مريم ٣٣) .

* * *

ثم إن ابن القيم يأتي بسؤال عن سبب تنكير لفظ (السلام) في أول رسالة يبعثها الرسول صلى الله عليه وسلم لهرقل — عظيم الروم — يقول فيها :

«من محمد — رسول الله — إلى هرقل — عظيم الروم — سلام على من اتبع الهدى»

وتعريف لفظ (السلام) في قول موسى — عليه السلام — لفرعون ، في قوله تعالى : «والسَّلاَمُ عَلَى مَن اتَّبَعَ الهُدَى» (طه ٤٧) ، وما السر في ذلك . ؟ .

ويجيب ابن القيم عن هذا السؤال بقوله :(٤)

«في تنكير لفظ (السلام) مافي تنكير (سلام) من الحكمة — يشير إلى أن التنكير : المراد منه : الدعاء ، كما في قولهم : (ويلٌ له ، وخيبةٌ له ، وسقيًا له ، ورَعْيًا) — كما تقدم بيانه.

وأما قول موسى — عليه السلام — «والسَّلاَمُ عَلَى مَن اتَّبَعَ الهُدَى» فليس بتحية ، فإنه لم يبتدئ به فرعون ، بل هو خبر محض ، فإن من اتبع الهدى ، له

(السلام) المطلق ، دون من خالفه ، فإن موسى قال لفرعون : «فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيل ولاَ تُعَذِّبْهُم ، قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ من رَبِّكَ ، والسَّلاَمُ عَلَى مَن اتَّبعَ الْهُدَى ، إنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ العَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وتَوَلَّى» (طه ٤٧ ، ٤٨) .

أفلا ترى أن هذا بتحية ، فليس (السلام) في ابتداء الكلام ولا خاتمته ، وإنما وقع متوسطا بين الكلامين إخبارا محضا عن وقوع السلامة وحلولها على من اتبع الهدى ؟ .

ففي ذلك استدعاء لفرعون وترغيب له ، بما جبلت النفوس على حبه وإيثاره من السلامة ، وأنه إن اتبع الهدى الذي جاء به فهو من أهل السلامة .

وهكذا نرى ابن القيم يحلق في الأجواء القرآنية ، ويستخرج من أسرار التعبير في تحية الإسلام «سلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ، ويورد ثمانية وعشرين سؤالا ، ويجيب عنها ، ويطوف في علوم العربية أجمع ، ويتعرض في خلال إجابته لأسباب التعريف والتنكير للفظ (السلام) ، والأسرار البلاغية لكل منهما ، ويقلب الأمر ظهرًا لبطن بإيراد الأمثلة ، وإبراز الشواهد القرآنية التي توضح مايريد ، ويدخل على القارئ الطمأنينة والانشراح ، ويمتع القارئ بما وصل إليه من نتائج ، وحصل عليه من لطائف وطرائف .

● ● ●

وفي تتبعنا لابن القيم في كتابه (بدائع الفوائد) وجدنا أنه قد عاد لمثل هذا الحديث وأتى بما يدعو إلى البحث والتدبير ، فقال :(٥)

«وهنا نكتة بديعة ينبغي التفطن إليها ، وهي أن (السلام) شرع على الأحياء والأموات بتقديم اسمه تعالى على المسلم عليهم ، لأنه دعاء بخير ، والأحسن في دعاء الخير أن يتقدم الدعاء به على المدعوله ، كقوله تعالى :

«رَحْمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه عَلَيْكُم أَهْلَ الْبَيْت» (هود ٧٣) .

«سَلاَمٌ عليكُم بِمَا صَبَرْتُمْ» (الرعد ٢٤) .

«سَلَامٌ علَى نُوحٍ فى العَالمِين» ، « سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيم » ، « سَلَامٌ علَى إِلْيَاسِين » (الصافات ٧٩ ، ١٠٩ ، ١٣٠) .

وأما الدعاء بالشر فيقدم فيه المدعو عليه على المدعو به — غالبًا — كقوله تعالى لابليس :

« وإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى » (ص ٧٨) .
« وإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ » (الحجر ٣٥) .
« عَلَيْهِم دَائِرَةُ السَّوْءِ » (الفتح ٦) .
« فعَلَيْهِم غَضَبٌ » (النحل ١٠٦) .

وسر ذلك — والله أعلم — أن في الدعاء بالخير قدموا اسم الدعاء المحبوب الذي تشتهيه النفوس وتطلبه ، ويلذ للسمع لفظه ، فيبدأ السمع بذكر الاسم المحبوب المطلوب، فيحصل له من السرور والفرح ما يبعث على التواد والتحاب والتراحم الذي هو المقصود بالسلام .

وأما في الدعاء عليه، ففي تقديم المدعو عليه إيذان باختصاصه بذلك الدعاء، وأنه عليه وحده ، كأنه قيل لك : هذا عليك وحدك لا يشركك فيه السامعون ، بخلاف الدعاء بالخير فإن المطلوب عمومه ، وكل ماعم به الداعي كان أفضل» .

فهذه التحية — تحية الإسلام — لا ينبغي أن تكون حشدا من الكلمات ، يؤتي بها كما اتفق ، يقدم هذه ، ويؤخر هذه ، أو يعرف تلك وينكر تلك دون نظام أو رباط — كلا —

بل في تلك التحية ، وفي نظامها — في التعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير — لطائف طريفة ، وأسرار عظيمة ، مكنونة بين السطور ، أظهرها ابن القيم ، وأخرجها من مكانها ، ولو تعقلها كل بادئ بالسلام أو رَادٌّ عليه، لأدخل على القلب السرور ، وملأه بالبشر والحبور ، وأشاع في نفسه معنى السلام والوئام .

ثانيًا : اللفظ إذا وقع مفردا ، أو مثنى ، أو مجموعًا

إذا أمعنا الفكر في الألفاظ عند استعمالها في أساليب القرآن الكريم ، ودققنا النظر في آيات الذكر الحكيم ، واستوفينا الكشف عنها في التعبير الرباني ، وقفنا على أسرار عظيمة ، ووجدنا لطائف عجيبة ، ورأينا أنه يذكر في كل موضع مايلائمه منها ، ويوضع كل لفظ في محله الذي يليق به .

والمشاهد في تعبيرات القرآن الكريم أنه تارة يستعمل لفظ المفرد دون جمعه ، وتارة أخرى يستعمل لفظ الجمع دون مفرده ، ولو حاولنا التغيير والتبديل ، أو إحلال أحدهما محل الآخر ، فسد التعبير ، وذهبت حلاوته ، وفاتته طلاوته .

السماء والأرض :

والباحث في ألفاظ القرآن يلاحظ أنه حيث ذكر (الأرض) فإنه يجدها مفردة دائمًا ، فيقال : (أرض) ، ولم تأت جمعًا ، ولذلك لم نجد في القرآن (أرَضُون) ، وحينما جاءت في الأسلوب القرآني جمعا قال : « اللَّهُ الذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوٰتٍ ومِنَ الأرْضِ مِثْلَهُنَّ » (الطلاق ١٢) فأتى القرآن بثلاثة ألفاظ تدل على الجمع بدلاً من (أرَضُون) ، وهذا بخلاف (السماء) ، فقد وردت في القرآن تارة بصيغة المفرد ، وأخرى بصيغة الجمع .

وهذه الظاهرة في الأسلوب القرآني لفتت نظر الجاحظ ، فعلق عليها ، فقال : (٦) «قد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها... ولفظ القرآن الذي عليها أنه إذا ذكر (سبع سموات) لم يقل (الأرضين)، ألا تراه لايجمع (الأرضين) على (أرضين) ، ولا (السمع) على (أسماع) ، والجاري على أفواه العامة خلاف ذلك» .

فالجاحظ لاحظ هذه الظاهرة في الأسلوب القرآني ، وأن العامة تخطىء حينما تشذ عن ذلك ، ولكنه لم يعلل لها .

لكن ابن القيم التمس لهذه الظاهرة العلة ، وبين السبب، فقال: (٧) «فإن قلت: لم جمعوا (السماء) فقالوا : (السموات) ، وهلا راعوا فيها ماراعوا في الأرض فإنها مقابلة ، فما الفرق بينهما ؟»

ويجيب على هذا السؤال ، فيقول :

«قيل : بينهما فرقان ، فرق لفظي ، وفرق معنوي .

فأما اللفظى : فإنهم لو جمعوا (أرضا) على قياس جموع التكسير لقالوا (أَرْضُض) كأفْلُس، أو (أراض) كأجمال، أو (أُرُوض) كفُلُوس، فاستثقلوا هذا اللفظ، إذ ليس فيه من الفصاحة والحسن والعذوبة ما في لفظ (السموات)، وأنت تجد اللفظ ينبو عنه بقدر ما نستحسن لفظ (السموات) ولفظ (السموات) يلج في السمع بغير استئذان لنصاعته وعذوبته، ولفظ (الأراضي) لا يأذن له السمع إلا على كره، ولهذا تفادوا من جمعه إذا أرادوه بثلاثة ألفاظ تدل على التعدد، كما قال تعالى «خَلَقَ سَبْعَ سَموات وَمِنَ الأَرْض مِثْلَهُنَّ». كل هذا تفادياً من أن يقال: (أراض، أو أُرُض).

وأما الفرق المعنوي : فإن الأرض هي دار الدنيا التي هي بالإضافة إلى الآخرة كما يدخل الإنسان أصبعه في اليم ، والله تعالى لم يذكر الدنيا إلا مقللاً لها محقرًا لشأنها ، وأما السموات فهى مقر ملائكة الرب تعالى ، ومحل دار جزائه ، ومهبط ملائكته ووحيه» .

ولكن متى يُفرد لفظ (السماء) ومتى يُجمع في أساليب القرآن ؟

يجد ابن القيم لذلك السؤال جوابًا ، ويلتمس له سبباً ، **فيقول**⁽⁸⁾ :

« إذا أريد الوصف الشامل للسمٰوات — وهو معنى العلو والفوق — **أفردوا** ذلك بحسب مايتصل به من الكلام والسياق ، ويعبر عنها بلفظ الجمع إذا كان المقصود ذواتها — لا مجرد العلو والفوق » .

ثم يأتي بالشواهد الكثيرة من القرآن الكريم ليؤكد ذلك ، فيقول :

« فتأمل قوله تعالى : « أَأَمِنْتُم مَنْ في السَّماءِ أنْ يَخْسِفَ بكُم الأَرْضَ ، فَإذا هِيَ تَمُورُ ، أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ في السَّماءِ أنْ يُرْسِلَ عليْكُم حَاصِبًا » (الملك ١٦ ، ١٧) ، كيف أفردت هنا ؟ ، لما كان المراد الوصف الشامل ، والفرق المطلق ، ولم يرد سماء معينة مخصوصة .

وكذا قوله تعالى : « ومَا يَعْزُبُ عنْ رَبِّكَ مِنَ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ في الأَرْضِ ولا في السَّماء » (يونس ٦١) .

بخلاف قوله تعالى : « **عَالِمِ الغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْه مِثْقَالُ ذرّة في السَّمَواتِ ولاَ في الأَرْض** » (سبأ ٣) فإنه ذَكَر — سبحانه — سعة ملكه ومحله — وهو السموات كلها والأرض — ولما لم يكن في سورة يونس ما يقتضي ذلك أفردها للجنس .

وتأمل كيف أتت مجموعة في قوله تعالى : « **وهُوَ اللَّهُ في السَّمواتِ وفي الأرْض يَعْلَمَ سِرَّكُمْ وجَهْرَكُم** » « **الأنعام ٣**) فإنها أتت مجموعة هنا لحكمة ظاهرة — وهي تعلق الظرف بما في اسمه تبارك وتعالى من معنى الإلهية ، فالمعنى : هو الإله المعبود في كل واحدة واحدة من السموات ، ففي كل واحدة من هذا الجنس هو الإله المعبود ، فذِكْر الجمع هنا أبلغ ، وأحسن من الاقتصار على لفظ الجنس الواحد » .

وبناء على هذا الفهم في قوله تعالى :« **وهُوَ اللَّهُ في السَّمواتِ وفي الأَرْض** » يُخطِّئ ابن القيم بعض المتسننة في الوقوف على لفظ (السموات) ، ثم يستأنف الكلام بعد ذلك ، فيقول : « ولما عزب هذا المعنى عن فهم بعض المتسننة فسر الآية

بما لا يليق بها ، فقال : الوقف التام على (السموات) ، ثم يبتدئ بقوله : «وفي الأرض يعلم سركم» .

وغلط في فهم الآية ، وإن معناها ما أخبرتك به ، وهو قول محققي أهل التفسير» .

ثم يستأنف ابن القيم الاستشهاد بالآيات القرآنية ، فيقول :

« وتأمل كيف جاءت (السماء) مفردة في قوله تعالى : « **فَوَرَبِّ السَّماءِ والأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُم تَنْطِقُون** » **(الذاريات ٢٣)** إرادة لهذين الجنسين ، أي رب كل ماعلا ، وكل ما سفل ، فلما كان المراد عموم ربوبيته أتى بالاسم الشامل لكل مايسمى سماء ، وكل ما يسمى أرضا .

وانظر كيف جاءت مجموعة في قوله «**يُسَبِّح لِلَّه مَا فِى السَّمٰوَاتِ ومَا فِى الأَرْض**» (الجمعة ١) في جميع السور(٩) ، لما كان المراد الإخبار عن تسبيح سكانها على كثرتهم ، وتباين مراتبهم ، لم يكن بد من جمع محلهم .

ونظير هذا جمعها في قوله : « **وَلَهُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْض وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكبِرُونَ عن عِبَادَتِه ولاَ يَسْتَحْسِرُون** » **(الأنبياء ١٩)** .

وكذلك جاءت في قوله : « **تُسَبِّح لَهُ السَّمواتُ السَّبْعُ** » **(الإسراء ٤٤)** مجموعة ، إخبارا بأنها تسبح له بذواتها وأنفسها على اختلاف عددها ، وأكد هذا المعنى بوصفها بالعدد ، ولم يقتصر على السموات فقط ، بل قال : السبع .

وانظر كيف جاءت مفردة في قوله تعالى : « **وَفِى السَّماءِ رِزْقكُم وما تُوعَدُون** » **(الذاريات ٢٢)** فالرزق : المطر ، وما وعدنا به : الجنة ، وكلاهما في هذه الجهة ، لا أنهما في كل واحدة واحدة من السموات، فكان لفظ الإفراد أليق بها.

ثم تأمل كيف جاءت مجموعة في قوله : « **قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمواتِ والأَرْضِ الغَيْبَ إلاَّ اللَّه** » **(النحل)** لما كان المراد نفي علم الغيب عن كل من هو في واحدة واحدة من السموات أتى بها مجموعة .

وتأمل كيف لم يجئ في سياق الإخبار بنزول الماء منها إلا مفردة حيث وقعت، لما لم يكن المراد نزوله من ذات السماء بنفسها، بل المراد الوصف.

وبعد أن يصل ابن القيم إلى هذه النتائج الطيبة ، ويكشف عن تلك الأسرار العظيمة ، ويلتمس الأسباب لجمع لفظ (السموات) وإفرادها ، يجد أن هناك آيتين من القرآن الكريم يبدو أنهما في المعنى سواء ، لكن إحداهما جاء فيها السماء مفردة ، وفي الثانية جاءت مجموعة .

فالآية الأولى قوله تعالى : « **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِن السَّماءِ والأرْضِ أمْ مَنْ يَمِلكُ الأَسْمَاعِ والأَبْصَار ، ومَنْ يُخرجُ الحَيَّ من المَيِّتِ ، ويُخْرِجُ المَيِّتَ من الحَيِّ ، ومَنْ يُدَبِّرُ الأَمْر؟ ، فسَيَقُولُونَ اللَّه** » . (**يونس ٣١**) .

والآية الثانية : «**قل منْ يَرزُقكُم من السَّمواتِ والأرض، قُلْ الله» (سبأ ٢٤).**

وقد التمس ابن القيم سببا لهذا الاختلاف ، وتوجيها لطيفا له ، فقال :

«قيل : هذا من أدق المواضع وأغمضها وألطفها فرقا ، فإن الآيات التي في يونس سيقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به ، ولم يمكنهم إنكاره من كون الرب تعالى هو رزاقهم ، ومالك أسماعهم وأبصارهم ، ومدبر أمورهم . ومخرج الحي من الميت ، والميت من الحي ، فلما كانوا مقرين بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم ... ولهذا قال بعد أن ذَكَر أنَّ ذلك من شأنه تعالى : «فسيقولون الله» أي لابد أنهم يقرون بذلك ولايجحدونه .

فالمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء التي يشاهدونها بالحس ، ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى تنتهي إليهم ، ولم يصل علمهم إلى هذا ، فأفردت لفظ (السماء) هنا ، لأنهم لايمكنهم إنكار مجيء الرزق منها ... فخوطبوا بما هو أقرب الأشياء إليهم بحيث لايمكنهم إنكاره .

وأما الآية التي في سبأ ، فلم ينتظم بها ذكر إقرارهم بما ينزل من السموات ، ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها ، ولم يذكر عنهم أنهم هم المجيبون المقرون

فقال : « قُلْ مَنْ يَرزُقُكم مِن اَلسموات والأَرْضِ، قل : اللَّه » ولم يقل : فسيقولون الله ، فأمر تعالى نبيه (ﷺ) أن يجيب بأن ذلك هو الله وحده الذي ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السموات السبع » .

وهكـذا نجد أن التعبير في القرآن الكريم لم يجمع لفظ (أرض) واستغنى عن جمعه بثلاثة ألفاظ استبعادا للجمع الذي لا يورث الكلام حسنا ، ولا يصفه بالصفاء والنقاء .

وعندما يستعمل القرآن لفظ (السماء والأرض) مفردا أو جمعا فإنما يستعملها في محلها اللائق بها ، وفي موضعها المناسب لها ، ولو حاولنا التغيير أو التبديل أو إحلال المفرد محل الجمع أو الجمع محل المفرد ، تبدل المعنى ، وانعكس المقصود .

الريح والرياح :

وبعد أن ينتهي من الكشف عن الأسرار البلاغية لإفراد لفظ (السماء) وجمعها ، أضاف إلى ذلك ألفاظا أخرى وردت في آيات الذكر الحكيم ، تفرد وتجمع لأسباب بلاغية ، يتذوقها السامع عند البحث والدراسة ، منها (الريح والرياح) ، فيقول : (١١)

«ومن هذا الباب ذكر (الرياح) في القرآن جمعا ومفردا ، فحيث كانت في سياق الرحمة أتت مجموعة ، وحيث وقعت في سياق العذاب جاءت مفردة .

وسر ذلك : أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمهابّ والمنافع ، وإذا هاجت منها ريح أنشأ لها مايقابلها ، ومايكسر سورتها ، ويصدم حدتها ، فينشأ من بينهما ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات، فكل ريح منها في مقابلها ما يعد لها، ويرد سورتها ، فكانت فى الرحمة رياحا .

وأما في العذاب : فإنها تأتي من وجه واحد ، لايقوم لها شيء ، ولايعارضها غيرها ، حتى تنتهي إلى حيث أمرت ، لايرد سورتها ، ولا يكسر شرتها ، فتمتثل ما أمرت به ، وتصيب ما أرسلت إليه ، ولهذا وصف — سبحانه — الريح التي أرسلها على عاد بأنها عقيم ، فقال : « وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهم الرِّيحَ العَقِيم » (الذاريات

٤١) ، وهي التي لا تلقح ولا خير فيها ، والتي تعقم مامرت عليه »

وحينما نستقريء أساليب القرآن الكريم نلاحظ لفظ (الريح) يأتي مفردًا وجمعًا ، ولكل كلمة منها مقام ، فحيث ذكرت (الريح) في سياق الرحمة جاءت مجموعة ، كقوله تعالى :

« **اللَّهُ الذَّى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِير سَحَابًا** » (الروم ٤٨)
« **ومِنْ آياتِه أنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ** » (الروم ٤٦) .
وأرْسَلْنَا الرِّيَاح لَوَاقِح » (الحجر ٢٢) .

وحيث ذكرت في سياق العذاب أتت مفردة ، كقوله تعالى :

« **فأرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فى أيَّامٍ نَحِسَاتٍ** » (فصلت ١٦) .
« **فأرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا وَجُنُودًا لمْ تَرَوْهَا** » (الأحزاب ٩) .
« **وأمَّا عَادٌ فأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ** » (الحاقة ٦) .

ولهذا قال النبي ﷺ فيما رواه ابن عباس ، يقول : هاجت ريح أشفق منها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فاستقبلها وجثا على ركبتيه ، ومد يديه إلى السماء ، ثم قال : « اللهم اجعلها رياحا ، ولاتجعلها ريحا ، اللهم اجعلها رحمة ، ولا تجعلها عذاباً ».(١٢)

وقد اطرد ذلك في القرآن الكريم ، ولم يشذ إلا في آية واحدة ، وهي قوله تعالى : « **هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُم فى البَر والبَحْرِ حَتَّى إذَا كُنْتُمْ فى الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ** » (يونس ٢٢) .

فقد ذكر في الآية (ريح) الرحمة بالإفراد — على عكس القاعدة — فقال : « بِرِيحٍ طَيِّبَة » ، فلماذا هذا الاختلاف ؟ .

يعلل ابن القيم لهذا الاختلاف في الآية تلك بقوله :(١٣)

« لأن تمام الرحمة هناك — يقصد في البحر — إنما تحصل بوحدة الريح ، لا باختلافها ، فإن السفينة لاتسير إلا بريح واحدة من وجه واحد سيرها ، فإذا

اختلفت عليها الرياح، وتصادمت، وتقابلت، فهو سبب الهلاك، فالمطلوب هنا ريح واحدة لا رياح، وأكد هذا المعنى بوصفها بالطيب دفعاً لتوهم أن يكون ريحاً عاصفة، بل هي مما يفرح بطيبها».

ونحس بسروره الشديد لاهتدائه إلى هذه الأسرار ، وتوفيقه في تلك التوجيهات ، ووقوفه على تلك اللطائف ، ووقوعها على السمع موقع القبول ، وعلى السامع موقع الرضا ، فيقول : «فليتنزه الفطن بصيرته في هذه الرياض المونقة المعجبة التي ترقص القلوب لها فرحا ، ويتغذى بها عن الطعام والشراب ، والحمد لله الفتاح العليم .

فمثل هذا الفصل يعض عليه بالنواجذ ، وتثنى عليه الخناصر ، فإنه يشرف بك على أسرار وعجائب تجتنيها من كلام الله ، والله الموفق للصواب» .

وحق لابن القيم أن يفخر بما وفقه الله من التوصل إلى هذه اللطائف العجيبة ، والطرائف الغريبة ، والتي ينبغي أن يتنزه الإنسان نظره فيها ، ويمتع قلبه وعقله بالسماع إليها ، ونظره بقراءتها ، كما يجب الحرص عليها ، إذ هي مما يعض عليها بالنواجذ ، وتثنى عليه الخناصر .

الظلمات والنور ، سُبُل الباطل وسبيل الحق ، الشمائل واليمين :

هناك ألفاظ أخرى تجمع وتفرد في أساليب القرآن الكريم ، ولجمعها وإفرادها في مواضعها أسرار ولطائف يتذوقها السامع أو القارئ عند البحث ، أو الإمعان في الدراسة .

فتجمع كلمة (الظلمات) ، وتفرد كلمة (النور) ، يقول تعالى : «**الحَمْدُ لِلَّه الَّذِي خَلَقَ السَّمواتِ والأَرضَ وجَعَلَ الظُّلُماتِ والنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِين كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُون**» (الأنعام ١) .

ونجمع (سُبُل الباطل) ، ويفرد (سبيل الحق) ، يقول تعالى : «**وَأَنَّ هَذَا صِراطِي مستَقِيما فاتَّبِعُوهُ ولاَ تَتَّبعُوا السُّبُل فَتَفَرَّق بِكمُ عَنْ سَبِيله**» (الأنعام ١٥٣) .

وجمع الله جهة (الشِّمال) ، وأفرد جهة (اليمين) ، يقول تعالى : «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ من شَيْءٍ يَتفَيَّأُ ظلالُهُ عَن اليَمِينِ والشمائل سُجَّدًا لِلَّه وهُمْ دَاخِرون » (النحل ٤٨) .

فما السبب في جمع لفظ (الظلمات) وإفراد لفظ (النور) ، وجمع (سُبُل الباطل) وإفراد (سبيل الحق) ، وجمع (الشَّمائل) وإفراد (اليمين) في تلك الآيات الكريمة ؟ .

يقول ابن القيم في بيان تلك الأسباب :[١٤]

«الجواب عنها يخرج من مشكاة واحدة ، وسر ذلك — والله أعلم — أن طريق الحق واحد ، كما قال تعالى : «هَذَا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيم » (الحجر ٤١) ، قال مجاهد : الحق طريقه على الله ، ويرجع إليه ، كما يقال : طريقك عليَّ ، ونظيره قوله : « وعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيل » (النحل ٩) في أصح القولين ، أي السبيل القصد الذي يوصل إلى الله ، وهي طريق عليه ، قال الشاعر :

فهنَّ المَنَايَا ، أيّ وادِ سَلكته   عليها طَرِيقِي ، أو عَلَيَّ طَرِيقُها

والمقصود : أن طريق الحق واحد ، إذ مرده إلى الله الملك الحق ، وطرق الباطل متعددة ، ومتشعبة ، فإنها لاترجع إلى شيء موجود ، ولاغاية لها يوصل إليها ، بل هي بمنزلة بنيات الطريق ، وطريق الحق بمنزلة الطريق الموصل إلى المقصود ، فهي وإن تنوعت فأصلها طريق واحد .

ولما كانت الظلمة بمنزلة طرق الباطل ، والنور بمنزلة طريق الحق ، بل هما هما ، أفرد النور ، وجمعت الظلمات ، وعلى هذا جاء قوله : « **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ، يُخْرِجُهُم من الظُّلُماتِ إلى النُّورِ ، والذَّينَ كفَرُوا أوْلياؤُهم الطَّاغُوت ، يُخْرِجُونَهم من النُّور إلى الظُّلُمَات**» (البقرة ٢٧٥).

فوحد (ولي الذين آمنوا) وهو الله الواحد الأحد ، وجمع أولياء (الذين كفروا) لتعددهم وكثرتهم ، وجمع (الظلمات) وهى طريق الضلال والغي لكثرتها واختلافها ، ووحد (النور) وهو دينه الحق ، وطريقه المستقيم الذي لاطريق إليه سواه .

ولما كانت (اليمين) جهة الخير والفلاح ، وأهلها هم الناجون أفردت ، ولما كانت (الشِّمال) جهة أهل الباطل وهم أصحاب الشمال جمعت في قوله « عَن اليَمينِ والشَّمائِل » .

وهناك من آيات القرآن الكريم من ألفاظ (الشمال واليمين) ماخرج عن هذه القاعدة ، فقد أفردت لفظة (الشمال) في قوله تعالى في وصف مشهد من مشاهد يوم القيامة « وأَصْحَابُ الشِّمالِ ما أَصْحَابُ الشِّمَاَل » (الواقعة ٤١) ، وفي قوله تعالى : **« وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الوَرِيد ، إِذْ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ عن اليَمين وعَن الشِّمال قَعِيد »** (ق ١٦ ، ١٧) .

وجمعت لفظه (اليمين في قوله تعالى حكاية عن إبليس : **« ثُمَّ لآتينهم منْ بَيْن أيْدِيهم ، ومِنْ خَلْفِهم ، وعَنْ أيْمَانِهِم ، وعَنْ شَمَائِلِهم »** (الأعراف ٧٧) .

فلماذا أفردت لفظة (الشمال) وجمعت لفظة (اليمين) في الآيات السابقة، وما هي الأسرار التي دعت إلى هذا التغيير؟.

يقول ابن القيم في الإجابة عن الآية الأولى : (١٥)

« قيل : جاءت (الشمال) مفردة ، لأن المراد أهل هذه الجهة ومصيرهم ومآلهم إلى جهة واحدة وهي جهة الشمال، فلا يحسن مجيئها مجموعة، لأن طرق الباطل وإن تعددت فغايتها المرد إلى طريق الجحيم وهي جهة الشمال ».

وعن الآية الثانية ، قال :

« لما كان المراد أن لكل عبد قعيدين ، قعيدا عن يمينه ، وقعيدا عن شماله ، يحصيان عليه الخير والشر ، فلكل عبد من يختص بيمينه وشماله من الحفظة ، فلا معنى للجمع هنا » .

وعن الآية الثالثة ، يقول :

« الجمع هنا في مقابلة من يريد الشيطان إغواءهم ، فكأنه أقسم أن يأتي كل واحد واحد من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، ولا يحسن هنا عن يمينهم وعن شمالهم ، بل الجمع هنا في مقابلة الجملة بالجملة المقتضى توزيع الأفراد ،

ونظيره قوله تعالى : « فَاغْسِلُوا وجُوهَكُم وأَيْدِيَكُم إلى المَرَافِق » (المائدة ٦) .

وبهذا نرى أن لفظ القرآن الكريم (اليمين أو الشمال) حينما يأتي في تعبير مّا مفردا أو جمعا فإنما يكون كل لفظ في محله اللائق به ، وفي موضعه المناسب ، فإذا طرأ أدنى تعبير في وضعه ، تغير المعنى وفسد الأسلوب ، وضاع الغرض المراد .

المشرق و (المشرقين) والمشارق :

والباحث في ألفاظ القرآن الكريم يلاحظ أن لفظه (المشرق والمغرب) تارة تأتي مفردة، وثانية مثناة، وثالثة جمعا.

في حالة الإفراد يقول تعالي : «**رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً** » (المزمل ٦) .

وفي التثنية جاء قوله تعالى « **رَبُّ المَشْرِقَيْن ورَبُّ المَغْرِبَيْن** » (الرحمن ١٧) .

وفي الجمع يقول سبحانه : « **فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ المَشارِق والمَغَارِب ، إنَّا لَقَادِرُونَ ، عَلَى أنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهم ومَا نَحْنُ بمَسْبُوقِين** » (المعارج ٤٠ ، ٤١) .

يقول ابن القيم في أسباب ذلك التبديل ، وبيان الأسرار التي أدت إلى تغيير العبارة والحكمة في وجود هذه الآيات على تلك الصورة ؟ .

«تأمل هذه الحكمة البالغة في تغاير هذه المواضع في الإفراد والتثنية والجمع بحسب مواردها يطلعك على عظمة القرآن وجلالته ، وأنه تنزيل من حكيم حميد .

فحيث أفردا كان المراد أفقي المشرق والمغرب .

وحيث ثنيا كان المراد مشرق صعودها وهبوطها ، ومغربيها ، فإنها تبتدئ صاعدة حتى تنتهي إلى غاية أوجها وارتفاعها ، فهذا مشرق صعودها ، وينشأ منه فصلا الخريف والشتاء ، فجعل مشرق صعودها بجملته مشرقا واحدا ، ومشرق هبوطها بجملته مشرقا واحدا ، ويقابلها مغربها .

وحيث جمعت كان المراد مشارق الشمس ومغاربها .

فهذا وجه اختلاف هذه في الإفراد والتثنية الجمع » .

ولكن ما وجه اختصاص كل موضع من (الإفراد والتثنية والجمع) بما وقع فيه في آيات القرآن السابقة ؟ .

يجيب ابن القيم عن هذا التساؤل إجابة تصدر عن اعتزازه بنفسه ، وثقته بعلمه ، وبما انفرد به من تعمق في البحث ، واستقصاء في النفوذ إلى أعماق المعاني ، فيقول :

« وأما اختصاص كل موضع بما فيه فلم أر أحداً تعرض له ، ولا فتح بابه ، وهو بحمد الله فيما بين من السياق.

فتأمل وروده مثنى في سورة الرحمن لما كان مساق السورة مساق المثاني المزدوجات . فذكر أولاً نوعي الإيجاد — وهما الخلق والتعليم — فقال(١٧) : « خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ » ثم ذكر سراجي العالم ومظهره — وهما الشمس والقمر — فقال : « الشَّمس والقَمَرُ بحُسْبَان » .

ثم ذكر نوعي النبات ، فإن منه ماهو على ساق ، ومنه ما انبسط على وجه الأرض — وهما النجم والشجر — فقال : **النَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدَان** » .

ثم ذكر السماءوالأرض ، فقال « **والسَّمَاء رَفَعَهَا .. والأَرْضَ وَضَعَها** » فأخبر أنه رفع هذه ووضع هذه ، ووسط بينهما ذكر الميزان .

ثم ذكر العدل والظلم في الميزان ، فأمر بالعدل ، ونهى عن الظلم ، فقال : « **وأَقِيمُوا الوَزْنَ بالقِسْطِ ولاَ تُخْسِرُوا المِيزَان**».

ثم ذكر نوعي الخارج من الأرض — وهما الحبوب والثمار — فقال : « **فِيهَا** فَاكِهَةٌ والنَّخْلُ ذَاتُ الأَكمَام ، والحَبُّ ذُو العَصْفِ والرَّيْحَان » .

ثم ذكر نوعي المكلفين — وهما الإنسان ، ونوع الجان — فقال : « خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كالفَخَّار ، وخَلَقَ الجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَار » .

ثم ذكر نوعي المشرقين والمغربين، فقال : « **رَبُّ المَشْرِقَيْنِ وربُّ المَغْرِبَيْن** » .

ثم ذكر بعد ذلك نوعي البحر الملح والعذب — فقال : **«مَرَج البَحْرَيْن يَلْتَقِيَان»** .

ثم قال ابن القيم بعد ذلك :

«فتأمل حسن تثنية المشرق والمغرب في هذه السورة وجلالة ورودهما لذلك ، وقَدِّرْ موضعهما اللفْظَ مفردا ومجموعا تجد السمع ينبو عنه، ويشهد العقل بمنافرته للنظم» .

وأما ورودهما مفردين في سورة المزمل ، فقال فيهما ابن القيم :

«ثم تأمل ورودهما في سورة المزمل ، لما تقدمهما ذكر الليل والنهار، فأمر رسوله بقيام الليل ، ثم أخبره أن له في النهار سبحا طويلا ، فلما تقدم ذكر الليل وما أمر به فيه ، وذكر النهار ومايكون منه فيه ، عقب ذلك بذكر المشرق والمغرب اللذين هما مظهر الليل والنهار، فكان ورودهما مفردين في هذا السياق أحسن من التثنية والجمع.

وأما ورودهما مجموعين في سورة المعارج ، فيقول ابن القيم :

ثم تأمل مجيئهما مجموعين في سورة المعارج في قوله **«فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ المَشَارِقِ والمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُون عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُم وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِين»** .

لما كان هذا القَسَم في سَعة ربوبيته ، وإحاطة قدرته ، والمقسم عليه : إذهاب هؤلاء والإتيان بخير منهم ، ذَكَر المشارق والمغارب لتضمنهما انتقال الشمس التي هي أحد آياته العظيمة الكبيرة، ونقله — سبحانه — لها ، وتصريفها كل يوم في مشرق ومغرب ، فمن فعل هذا ، كيف يعجزه أن يبدل هؤلاء ، وينقل إلى أمكنتهم خيرا منهم .

وأيضا فإن تأثير مشارق الشمس ومغاربها في اختلاف أحوال النبات والحيوان أمر مشهور ، وقد جعل الله تعالى ذلك بحكمته سببا لتبدل أجسام النبات ، واحوال الحيوان ، وانتقالها من حال إلى غيره ، وتبدل الحر بالبرد ، والبرد بالحر ، والصيف بالشتاء ، إلى سائر تبديل أحوال الحيوان والنبات والرياح ، والأمطار والثلوج ، وغير ذلك من التبدلات الواقعة في العالم بسبب اختلاف مشارق الشمس ومغاربها ،

فكيف لا يقدر مع ما يشاهدونه من ذلك على أن يبدل خيرا منهم ، وأكد هذا المعنى بقوله : «وما نحن بمسوقين» — فلا يليق بهذا الموضع سوى الجمع » .

وحينما اكتفى التعبير القرآني بذكر (المشارق) دون (المغارب) في سورة الصافات كان ذلك لحكمة بليغة ، وسر لطيف ، يفصح عنه ابن القيم ، فيقول :

« ثم تأمل كيف جاءت أيضًا في سورة الصافات مجموعة في قوله : « ربُّ السَّموات والأرْضِ ومَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المَشَارِق » (الصافات ٥) لما جاءت مع جملة المربوبات المتعددة وهي السموات والأرض وما بينهما ، كان الأحسن مجيئها مجموعة ، لينتظم مع ما تقدم من الجمع والتعدد.

ثم تأمل كيف اقتصر على (المشارق) — دون المغارب — لاقتضاء الحال لذلك ، فإن المشارق مظهر الأنوار ، وأسباب انتشار الحيوان وحياته ، وتصرفه ومعاشه وانبساطه ، فهو إنشاء مشهور ، قدمه بين يدى الردِّ على منكري البعث ... فكان الاقتصار هنا على ذكر (المشارق) في غاية المناسبة للغرض المطلوب».

وهكذا وجدنا أن للفظ القرآني (المشرق والمغرب) حينما استُعمل مفردا كان في محل يليق به ، وعندما جاء مثنى كان في موضع يطلبه لفظ التثنية ، وحينما أتى به مجموعًا كان ذلك في مكان يناسب لفظ الجمع .

وبعد :

فهذه روضة من رياض ابن القيم ، متعنا النظر فيها ، والعقل بها ، كان يتمتع بحاسة نفاذة استطاع بها أن يستشف كنوز المعرفة ، وأسرار البلاغة ، ولطائف اللغة من بين الألفاظ ، ومن خلال الكلمات .

وضع يده على تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في اختيار كلماته ، واصطفاء ألفاظه اصطفاء يتجلى فيه وجه الإعجاز ، فمنذ نزول القرآن الكريم إلى اليوم وقد مرت قرون وقرون ، ومضت أجيال وأجيال ، وكل جيل يفهم منها ما يناسب تفكيره ، ويلائم ذوقه ، ويوائم معارفه ، وتأتي أجيال أخرى تفهم من هذه الألفاظ بعينها غير ما فهمته أجيال القرون الأولى .

ولو حاول أي مفكر أو لغوي أن يستبدل بألفاظ القرآن الكريم تلك ألفاظا غيرها لم يصلح القرآن لخطاب الناس ، مما يدل على أنه كلام الله وحده ، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدًا .

وهكذا جاء فكر ابن القيم في ألفاظ القرآن الكريم ، وترك فيه آثارًا تتلى ، فانتفع ونفع ، وأروى بها نفوساً عطشى ، وأحيـا بها قلوبًا ظمآى ، فرحمه الله وجعل الجنة مثواه .

◆

المراجـــع

أولاً :

- القرآن الكريم

ثانيًا :

- الإتقان في علوم القرآن/للسيوطي — القاهرة ١٣٧٠ هـ .
- بدائع الفوائد/ لابن القيم — بيروت — بدون .
- البرهان في علوم القرآن/ للزركشي — تحقيق محمد أبو الفضل — القاهرة ١٣٧٧ هـ .
- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن/ للزملكاني — تحقيق د. أحمد مطلوب — بغداد ١٣٩٤ هـ .
- البيان والتبيين/ للجاحظ — تحقيق عبدالسلام هارون — القاهرة ١٩٧٥ م .
- التفسير القيم/ لابن القيم — جمع أويس الندوي — القاهرة ١٣٦٨ هـ .
- الطراز/ للعلوي — القاهرة ١٣٢٣ هـ .
- فقه اللغة وسر العربية/ للثعالبي — القاهرة — بدون .
- معترك الأقران في إعجاز القرآن/ للسيوطي — تحقيق علي البجاوي — القاهرة ١٩٦٩ م .
- ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن الكريم/ للمبرد — تحقيق الميمني .
- المرتجل/ لأبي محمد بن الخشاب — تحقيق علي حيدر — دمشق ١٣٩٢ هـ .

الهوامش

(١) بدائع الفوائد جـ ٢ ص ص ١٥٤ — ١٥٥ .

(٢) بدائع الفوائد جـ ٢ ص ٦٦ .

(٣) وعرف لفظ (السلام) في حق عيسى — عليه السلام — إذ هو ليس وارد على سبيل التحية ، وإنما حاصل من جمعه نفسه على سبيل الدعاء ، وإشعار بذكر الله ، فقد قصد في دعائه الرمز إلى ما اشتق من اسم الله تعالى .. ومن ثم كان اختتام الصلاة بـ (السلام) المعرف باللام لكونه اسما من أسمائه ، كما كان افتتاحها باسم من أسمائه سبحانه (انظر البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ١٣٧ ، الطراز جـ ٢ ص ١٧ ، المرتجل ص ٢٩٩) .

(٤) نفسه جـ ٢ ص ١٦٩ .

(٥) بدائع الفوائد جـ ٢ ص ١٧٤ .

(٦) البيان والتبيين جـ ١ ص ٤٠ .

(٧) بدائع الفوائد جـ ١ ص ١٤٤ وما بعدها .

(٨) بدائع الفوائد جـ ١ ص ١١٥ .

(٩) يقصد أوائل سور الحديد «سبح لله مافي السموات والأرض» ، والحشر «سبح لله ما في السموات وما في الأرض» والصف مثلها ، والتغابن «يسبح لله ما في السموات والأرض» .

(١٠) بدائع الفوائد جـ ١ ص ١١٧ .

(١١) بدائع الفوائد جـ ١ ص ١١٨ .

(١٢) انظر ذلك في البرهان جـ ٤ ص ٩ ، الإتقان جـ ١ ص ١٩٤ ، المعترك جـ ٣ ص ٥٩٦ ، فقه اللغة ص ٥٧٣ ، ما اتفق لفظه واختلف معناه ص ١٦ .

(١٣) بدائع الفوائد جـ ١ ص ١١٩ .

(١٤) بدائع الفوائد جـ ١ ص ١١٩ وموجود في البرهان جـ ٤ ص ١٢ ، ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد ص ١٩ ، الاتقان جـ ١ ص ١٩٤ ، المعترك جـ ٣ ص ٥٩٧ .

(١٥) بدائع الفوائد جـ ١ ص ١٢٠ .

(١٦) بدائع الفوائد جـ ١ ص ١٢١ .

(١٧) هذه الآيات من (خلق الإنسان) إلى (مرج البحر ..) أثبتها لتوضيح الشواهد وليست في كلام ابن القيم وإنما تفهم من قوله .